النخبة الحاكمة والحالمة والنائمة

ينزلون من السماء.. نتلقفهم في الأرض ونحملهم على أكتافنا.. نهتف لهم حتى تُبح حناجرنا.. نُصفق لهم حتى وإن لم نرهم عن قرب، بل بمجرد مرور مواكبهم من بعيد.. تدخلنا الرهبة واسماؤهم أو ألقابهم تمر على شفاهنا بقصد أو بدون قصد..

تملىء صورهم الكبرى صفحات الجرائد المعروفة وغير المعروفة، وتتصدر المجلات السياسية والاجتماعية وحتى الرياضية منها والفنية! وأخبارهم وتصريحاتهم هي دائمًا "المنشيت" العريض والأول لكل المجلات بجميع أصنافها وتوجهاتها.. وأول وثاني وثالث خبر على الشاشة الصغيرة الأرضية والفضائية، هو لهم ولزوارهم بدون استثناء..

يأتون إلينا وكأنهم هدية من السماء.. يلجون ويقتحمون - وبدون مقدمات - الساحات القيادية، ويتسلقون سلالم الحكم بسرعة الريح.. وفي كل موقع قيادي سواء كان طلابيًا أو نقابيًا أو سياسيًا تجدهم فجأة "نخبة حاكمة"! كيف ومتى ولماذا؟.. لا أحد يعرف، ويصبحون وكلمح البصر "القيادة" الفذة والحكيمة! لا ينطقون عن هوى.. وسمات الحكمة والقيادة تولد مع نسلهم! تنتقل كل هذه الصفات وغيرها بالعدوى إلى أقاربهم ومقربيهم ومَنْ دَارَ في فلكهم.. وتلقائيًا هم المؤهلون ليكونوا وزراء ومسؤولين نافذين في معظم المواقع القيادية!

فهذا من حقهم، وهذا قدرهم المكتوب ما داموا قد دخلوا في نادي النخبة الحاكمة!

وهناك أناس لا نعرفهم، ولم نسمع عنهم سابقًا، لكنهم ومع وصول هذا القائد الفذ إلى قمة سلم الحكم، يظهرون بشكل صارخ.. يتصفون بطول اللسان وحلو الكلام أحيانًا، ومُره أحيانًا كثيرة.. ولديهم القدرة الخارقة في تحويل الأبيض إلى الأسود.. والأسود إلى الذهبي في لمح البصر، وكأنهم سحرة ماهرون.. هم إفطارنا وغداؤنا وعشاؤنا لكل يوم وعلى كل شاشة.. يستخدمون طرق الخطب العصماء والشعر المنثور، للتعبير عن مديحهم وإيمانهم بحكمة وعبقرية القائد الفذ! وعندهم تفسير جاهز لأي قرار، وتبرير مفصل لكل تصرف!!

المشكلة في هؤلاء أنهم يعرفون معرفة اليقين، بأنهم يكذبون أو في أفضل الحالات يُجَمِلون، وأنهم ليسوا سوى أبواق للنخبة الحاكمة.. يعرفون أيضًا أنهم مهما استخدموا أصواتهم وأساليبهم، وحتى أقلامهم تلميعًا ودفاعًا عن هذه النخبة، فلن يحصلوا مقابل ذلك إلا على الفُتات، ولن يتمكنوا من دخول نادي النخبة الحاكمة مهما كانت تضحياتهم ومحاولاتهم.. كل ما سيحصل عليه هؤلاء هو أن يكونوا أعضاء دائمين، بدوام هذا القائد في نادي النخبة الحالمة، والتي ستبقى تحلم أن تكون يومًا ما نخبة حاكمة مع كل الامتيازات الخاصة! وهو في الغالب حلم إبليس في الجنة! فهم بجدارة "النخبة الحالمة" بلا منافس.

أما أولئك الذين يمثلون الأكثرية، وخاصة في مجتمعنا الفلسطيني فهم أولئك البسطاء المغلوبون على أمرهم، ولكي لا نظلمهم، فهم يحاولون

وفي مناسبات كثيرة التعبير ولو بالكلمة عن حنقهم على هذا الواقع.. ويعترضون على أحوالهم ومستوى معيشتهم، أو على الوضع السياسي وقرارات النخبة الحاكمة، بمظاهرات سلمية أو مقالات أو نشرات وخطابات لا يكون لها على الأغلب إلا الأثر البسيط على واقع الحال.

هذا الجزء من المجتمع يضم المتعلم والمثقف والعاطلين عن العمل وربات البيوت والجاهل والساذج، وحتى الجزء الكبير يمكننا أن نطلق عليه النخبة لاحتوائها على العلماء والمثقفين والمميزين والمتخصصين في المجالات المختلفة. لكنها وللأسف الشديد بغالبيتها يمكن أن ينطبق عليها لقب "النخبة النائمة".. هذه النخبة التي غالبًا ما تكون مسلوبة الإرادة بإرادتها أو رغمًا عنها.. لا تستطيع التأثير على الحدث ولا على مجريات الواقع، أو لا تريد، تطبيقًا لواقع "استروني والله يستركم"!!

هذه النخبة النائمة، عاجزة عن صنع القرار أو تحديد الاتجاهات، ورغم معرفتها بما ينفع أو يضر المصلحة العامة إلا أنها تقف مكتوفة الأيدي، أمام التدخل أو التحديث خوفًا أو قلقًا على لقمة عيشها، أو أن تصحو فتجد نفسها نخبة حالمة أو حاكمة.. علمًا بأن معظمنا - إن لم يكن كلنا - فضَّل أن يبقى من النخبة النائمة على أن يصبح غير ذلك!!

ولكي لا نهضم الناس حقهم، ولا يقال أننا نبخس أولئك العظماء، وهم الاستثناء من هذه النخب جميعًا حقوقهم.. أولئك الذي كرسوا جل حياتهم بجباههم العالية كالجبال لفلسطين الوطن والقضية.. وقاتلوا

كالأسود على كل ثغر وقفوا على أطرافه.. لم تُغريهم المناصب ولا الامتيازات، بل حملوا على أكتافهم هّم الإنسان الفلسطيني بثلاثية معاناته: التشرد والاحتلال وفقدان الأمن والأمان، هؤلاء الذين يستحقون أن ننحني لهم إجلالاً وعرفانًا، على الأقل لأنهم لم ينسونا يومًا وهم في قمة عظمتهم.. ولم ينسوا فلسطين الوطن المحتل.

المؤسف فقط، أن الكثير من هؤلاء نفقدهم بسرعة، لأنهم صمموا أن يكونوا شهداء على مذبح الحرية، فمنهم من قضى نحبه ومنهم كثيرون ينتظرون.

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

أماكن منسية

صار الفلسطيني "لاجئًا" بعد أن كان سيد نفسه وأرضه.. هذا باختصار هو النتاج الأقسى لنكبة الفلسطينين ونكساتهم.. فقدنا على إثرها السيادة على أرضنا التي ورثناها منذ آلاف السنين عن أجدادنا العرب الكنعانيين، فأضحى الإنسان الفلسطيني بلا ملجأ؛ فقد بيته الذي كان يأويه، ومُلكه الذي كان يحتمي به، كما فقد مصدر رزقه، وضمانة استقراره، وعنوان سيادته وهويته..

ورث هذا اللاجئ المكلوم عنوةً تركةً ثقيلة، أولها شخصية مميزة عنوانها البؤس والخوف من القادم، وشعارها خيمة بسيطة أو شبه بيت من "التنك"، وتنقّل دائم بحثًا عن ملجأ، كما ورث حمل قضيته الوطنية والبحث عن حقه المسلوب..

سيقول الكثيرون: اللاجئون كثر ومن كل بقاع الأرض، واللجوء لا يختصر على الفلسطيني فحسب، أقول نعم هذا بالتأكيد، لكن اللاجئ غير الفلسطيني إن لجأ إلى بلد ما، فإنما يلجأ لظروف آنية أو لوضع اقتصادي صعب أو لحرب عابرة أو مؤقتة، أما الفلسطيني فلجوؤه قاهر، بل هربًا من احتلال للأرض قبل الإنسان، وبعكس كل تجارب الاحتلال الأخرى.. فالاحتلال أو الاستعمار سواءً كان بريطانيًا أو فرنسيًا أو غيرهما كان هدفه الأول والأساسي ثروات البلد أكثر من حاجته

للأرض التي يحتلها، أما في الحالة الفلسطينية فهو احتلال للأرض وما عليها.. يريدها خاوية إلا من ثرواتها، خالية من الإنسان الفلسطيني تمامًا.. وهذا هو الفرق.

كان الملجأ الوحيد والأهم لهذا الفلسطيني اللاجئ، مخيمات انتشرت في بقاع كثيرة، سواء في غزة أو في الضفة الغربية، كما انتشرت أيضًا في الأردن ولبنان وسوريا. البقية المتبقية انتشرت في كل بقاع الأرض تقريبًا، وهو ما عُرف لاحقًا "بالشتات"، ولعل أكثرية منه استقر به المقام في دولة الكويت الشقيقة، مع أن هذا المقام لم يدم طويلاً فكان عليه أن يبحث عن ملجأ آخر وكأن قدره أن يبقى مرتحلاً!!

تبقى "المخيمات الفلسطينية" من أهم المعالم التي تُحدد رحلة العذاب الفلسطينية وأزمة اللجوء التي لا تتوقف عند أرض. هذه المخيمات وأبناؤها، سواءً ما أُنشئ منها على الأرض الفلسطينية أو على الأرض العربية، ورغم حالة البؤس والفقر اللذان يميزها عن باقي القرى والمدن الأخرى، إلا أنها شكلت؛ ومنذ انطلاقة المقاومة والثورة الفلسطينية بؤرة هذه المقاومة ومنبع الرجال، وكانت دائمًا وحتى الآن وقودًا للثورة وجذوتها.. ومفتاح الصمود في صولاتها وجولاتها..

مع ذلك، فالمتابع والزائر لهذه المخيمات سواءً كانت على الأرض الفلسطينية أو العربية، وبالذات في قطاع غزة الأبية، يلاحظ وبدون أدنى شك كل علامات القهر والبؤس المادي.. ويكفيه أن يشاهد

مستوى المباني وأشباه البيوت التي يسكنها أهلها بأدنى أسباب الراحة ووسائل الأمان، بلا بنىً تحتية ولا مرافق صحية ولو بأبسطها!! لا أمن اجتماعي ولا أمان.. لا استقرار ولا راحة بال.. لا عمل ولا وسائل مؤمّنة للكسب.. وجاء الحصار الجائر ليكمل المأساة تعقيدًا..

أما المخيمات على الأرض العربية، فحدث ولا حرج، ورغم أننا نُقدر استضافة هذه الدول لها ونشكرها عليها، فإن قلوبنا يعتصرها الألم والحزن لمستوى المعيشة الذي يثقل على العائلة الفلسطينية اللاجئة ويتعب كاهلها، فلم أسمع أو أرى عائلات ولا على أي بقعة من الأرض لا يزيد معدل دخلها الشهري عن السبعة دولارات إلا في هذه المخيمات!! ولا أعتقد أن هناك معاناة تصل إلى الحد الذي يعانيه أبناؤها.. فالدخل محدود، ومجال الرزق ضيق، بضيق مساحة هذه المخيمات.. زد على ذلك، مشاعر الظلم والقهر التي تلاحق هذا اللاجئ كلما تخيل أن غريبًا يتمتع برزقه، ويأكل ثمار أشجاره، ويستظل تحت سقف بيته، وهو يحاول بدون جدوى أن يحتمي تحت ألواح الصفيح! ومفتاح بيته القديم والعودة إلى دياره هي محور أحلامه وذكرياته التي لا تنسى ولا تنتهي.. فهل سمعتم عن أحد ينسى يومًا أحد أبنائه؟ أو عن إنسان نسي حقه أو أرضه أو عرضه؟ فهل إذا توفرت لهذا الإنسان العيشة الكريمة، فقد حقه في العودة والتعويض اللذان كفلتهما كل الشرائع والقوانين السماوية والدولية؟

للمخيمات الفلسطينية الفضل الأكبر على فلسطين وقضيتها الوطنية، فأبناء المخيمات في الداخل والشتات يؤكدون دائمًا وفي كل المحافل وعلى كل الساحات أنهم قادرون على خلق الإنجازات من رحم معاناتهم، وهم القادرون دائمًا على المنافسة والإبداع مع أقرانهم من أبناء الشعب الفلسطيني المناضل، وهم أول المضّحين بالغالي والنفيس لأجل قرارنا المستقل ولا يخلو أي بيت في أي مخيم فلسطيني من شهيد أو جريح أو أسير إن لم تكن كلها مجتمعة.. والأكثر من ذلك، سكان المخيمات في الداخل والخارج قد يشكلون الأكثرية من الشعب الفلسطيني، لكنهم مع ذلك، محرومون وفي معظم الأحوال من حقهم في التأثير السياسي بشكل فعال في رسم الخارطة السياسية وإدارة قضيتنا التي طالما كانوا وما زالوا وقودها وشعلتها التي لا تنطفئ، مهما قست الظروف وصعبت الحال.. كما أنهم؛ وأعتقد لظروفهم الصعبة والتي نتفهمها، مغيبون في فعل الحدث وعن الحسم في القضايا المصيرية كالانتخابات، وموضوع الانقسام الفلسطيني الذي طال، وغير ذلك من القضايا المهمة، ومع كل الأوضاع المأساوية التي يعيشها أهلنا في هذه المخيمات، إلا أنهم يبقون الثابتون في أماكنهم وعلى منابرهم وفي حصونهم، وهم الذين يحتاجون إلى كل دعم وإلى هبة من الجميع.. بحاجة إلى إعطائهم الحق في قول كلمتهم، وأن يعودوا إلى دور الريادة الذي يستحقونه، فلا نتركهم هكذا ضحية، لكن هذه المرة للجوع والفقر والحاجة.. فعواقب ذلك تفكك أسري وأمراض اجتماعية لا تُحمد عُقباها.. ولعلي

ومن خلال هذه الكلمات أنبه نفسي وأنتم معي لإنقاذ مخيماتنا من العوز والبؤس، ولو ببعض الاهتمام والدعم المادي والمعنوي وألا نجعل أماكنهم أينما كانوا أماكن منسية..

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

للعامل الفلسطيني تحية إجلال وإكبار

للعامل والموظف ورجل الأعمال الفلسطيني وضعه الخاص، فصباحه ونهاره وليله مختلف، فلغيره من أقرانه وفي معظم بقاع الأرض روتينه المتكرر، فهو يصحو مع كل شمس ليقصد عمله بدون أدنى معوقات، فلا حواجز ولا أغلاقات ولا حصار.. يعود إلى بيته في آخر نهارعادي ليقضي ليله بين أبناءه أو عائلته، يأخذ مرتبه الشهري أوالأسبوعي ليغطي نفقاته ونفقات بيته، وحين يأتي موعد إجازته فيكون قد خطط لها ليقضيها في مكان ما، يرفه بها عن نفسه وعن عائلته ليعود بعدها لموقع عمله بكل حيوية ونشاط..

أما الإنسان الفلسطيني، فالظروف هي التي تصنع له يومه، والحاجز الاحتلالي أو الجدار العنصري هو الذي يرسم معالم نهاره! فإذا كان يوم عمل وإنتاج فهاهو يعود ليقضي ليله بشئ من راحة البال، وإن لم يستطع مزاولة عمله لذلك اليوم لسبب ما، وما أكثرها من أسباب كالإغلاق أو منع التجول أو مناسبة يحتفل بها المحتل وينكد بها على عباد الله، فتكون ليلة سوداء لا راحة بال فيها ولا هناء..

العامل الفلسطيني مميز لصبره وتحمله للمسؤولية وعناده، وهو مستعد أن يمنع عن نفسه الخبز لكي يدفع أقساط المدرسة أو الجامعة لأولاده، يجد متعته وسعادته إن استطاع أن يرى أولاده وهم

أفضل حالاً وأكثر تعليمًا منه، والعامل الفلسطيني مميز لإتقانه لعمله وتفانيه وإخلاصه، فهو للأسباب هذه وغيرها مرغوب فيه في كل أماكن العمل ولو توفرت الأسباب فهو يبدع ويحافظ على لقمة عيشه، وهذا ما يجعله في مقدمة العمالة المرغوبة وبالذات في الخليج العربي وممن يصل إلى قيادة الكثير من المؤسسات والشركات الكبيرة فيها.

لكن العامل الفلسطيني في الأرض المحتلة يعاني الأمرين، وكأنه يقع تحت حجارة معصرة للزيتون أو مطحنة للقمح، يصارع ليبقى على الحياة. فالاحتلال وبكل الوسائل يمنعه من ممارسة حياته الطبيعية ككل البشر، والمؤسسات الوطنية الموجودة لا تحميه إذا جاع أو انقطع عن العمل لأي سبب. ولا العالم الذي يسمي نفسه بالحر يتطلع إليه لينصره على ظروفه وقهره والظلم الواقع عليه. فما العمل؟

لديَّ بعض الأفكار المتواضعة قد تنفع للوقوف مع حق العامل الفلسطيني بحياة كريمة، أولها بأن يُقتطع مبلغ بسيط من رواتب الموظفين الحكوميين والشركات الحكومية والخاصة لصالح الشريحة العاملة وقليلة الدخل أو العاطلين تمامًا عن العمل.

ثانيها، العودة إلى الأرض، خاصة أن المُلاحظ بقوة الآن أن اعتمادنا وبشكل شبه كامل على المنتج المستورد من خارج الضفة والقطاع بشكل خاص! فلماذا لا يكون خبزنا من قمح أرضنا الغنية؟ فالشعب

الذي يأكل من قمحه وشعيره وذراه لن يهزم أبدا.. لماذا لا نعود لنفلح ونزرع أرضنا أو على الأقل لنكون شعبًا منتجًا لا مستهلكًا؟.

ثالثًا: لماذا لا نبدأ بإنشاء مؤسساتنا الشعبية كالجمعيات الاستهلاكية والتعاونية؟ فيكون لكل حارة أو منطقة جمعية للمواد الغذائية والزراعية لخدمة أعضاءها ومساهيمها، لماذا لا ننشئ مصانعنا الوطنية والتعاونية أيضًا لنوفر وظائف وطنية؟ لا نريد أن نُصَدر بل لتكون للاستهلاك المحلي والاكتفاء الذاتي..

رابعًا وليس أخيرًا، لماذا لا ننشئ - ومِنْ خلال النقابات العمالية بكل أنواعها - ما يسمى بالأمن الاجتماعي عبر مساعدتهم في حال عجزهم عن العمل قبل وصولهم لسن التقاعد ولأعضائها على الأقل؟.

الكثير والكثير من المقترحات التي لن يمنعنا أحد من تطويرها وتطبيقها، لنخدم بها كل شرائح مجتمعنا من عمال وموظفين وطلبة ومدرسين، حتى لا يكون دعمنا ووقوفنا معهم مجرد احتفال اسمي بيوم العمال في الأول من آيار - مايو من كل عام فقط!!

نشرت في دنيا الوطن – ٢٠٠٩ م

كابوس اسمه "التوجيهي"

أما آن الأوان لتوجيه آخر؟

"كابوس" أو قل "حالة طوارئ" تُعلَنْ في أي بيت وصل ابن أو ابنة فيه لهذا العام الحاسم في حياة كل أو معظم طلابنا في مدارسنا العربية والفلسطينية، يسمونه "الثانوية العامة" أو "التوجيهي" اصطلاحنا، وبمعنى أنها السنة الموجهة للمستقبل الجامعي والدراسي بشكل عام. فمعظم جامعاتنا تعتبر معيار القبول في التخصصات المختلفة على نتيجة هذه السنة الدراسية من عمر الطالب، ولو أن بعضها بدأ منذ سنوات قريبة يأخذ بالاعتبار نتائج السنوات الدراسية الآخرى، وبالذات الدراسة الثانوية منها، لكن بقيت هذه السنة ونتيجتها من أهم العناصر والمقاييس التي يعتمد القبول والرفض عليها بشكل أساسي.

ولهذا السبب بالذات ينقلب حال البيت الذي يكون فيه طالب أو طالبة في مواجهة هذا الاستحقاق الهام والمصيري، وعليه يصبح حال هذا الطالب أو تلك الطالبة كحال المرأة الحامل مع فارق التشبيه، فيعفى من أي جهد أو مساعدة في عمل البيت أو الحقل فهما "توجيهي"!! ويأتي الطعام إلى طاولته أو غرفة نومه، فعليه أن يتغذى جيدًا ليستطيع التركيز، وعليه الاهتمام بصحته من أجل الحصول على المُعدل العالي الذي يُؤهله لدخول كلية الطب أو الهندسة!!

وهكذا يجد هذا الطالب المسكين نفسه تحت ضغط كل شيء: الأهل، المجتمع وحتى الدراسة نفسها، التي تبدو له وكأنها عالم جديد بدأ بالتعرف على إحداثياته لأول مرة، بالرغم من أن معظم من خاض هذه التجربة أو عاش هذا الكابوس يعرف تمامًا أن منهاج الثانوية العامة وفي مناهجنا المحلية ومناهج الدول العربية، هو نسخة مكررة ولو بتعقيد بسيط من مناهج المرحلة الإعدادية.

هذا هو الواقع الذي مررت أنا ومر ملايين الطلبة به، منذ عشرات السنين، وبعد أن تجاوزنا القرن العشرين وتطور كل شيء ولم يعد الاعتماد فقط على العلم وحده، بل تعداه للاستفادة من الخبرة العملية. فلم يعد من المفاجأة أن يكون الإنسان عالمًا وهو فاشل دراسيًا!! وبعد أن كانت التكنولوجيا العالية التقنية عالمًا من الخيال إلى زمن قريب، فأصبح الموبايل أو ما يسمى بالجوال سلعة رائجة، وهو حتى الثمانينيات لم يكن معروفًا إلا في الدول المتطورة، كاليابان أو الولايات المتحدة. وها هو الكمبيوتر أو الحاسب الآلي لا يخلو منه بيت، تستخدمه حتى سيدة البيت أو الطالب المتعلم أو حتى من لم يدخل المدرسة أصلاً، والأكثر من ذلك قد نجد طالبًا يبدع في ابتكار فريد في مجال الكمبيوتر أو مجال الميكانيك، وقد فشل في تحقيق نتيجة تؤهله لتحقيق حلم والديه في دراسة الهندسة أو الطب أو ما شابه.

من هذه القناعة، بدأت المدارس والهيئات التعليمية في أنحاء العالم المتقدم تبحث عن أساليب أخرى لتقييم قدرات الطلبة وتوجيههم لشق

طرق حياتهم بعيدًا عن الضغط النفسي والكوابيس المخيفة التي تؤثر على تركيزهم، وحتى لتحد من تأثير المفاجآت - وما أكثرها - في أيام الامتحانات النهائية وفي هذه السنة المصيرية في حياة طلبتنا.

لن أقول أن لا فوائد من الثانوية العامة وامتحاناتها، ولن أقول أيضًا أنها تخلو من إيجابيات قد تكون كثيرة، لكن أجزم أننا لن نستطيع في سنة دراسية لا تتعدى الثمانية أشهر أو أقل، من بناء الشخصية المطلوبة لمواجهة الاستحقاق الجامعي، كما أننا لن نستطيع ضمان عدم وقوع الظلم في القبول في الكليات والتخصصات المختلفة، حسب رغبة الطالب أو رغبة أهله وحتى المجتمع أحيانًا، والأهم من ذلك حاجة السوق والتخمة التي تملأ الشركات والمرافق والمؤسسات، والمحزن في هذا كله عدم اختبار وامتحان رغبة الطالب وميوله قبل امتحانه، ومعرفة نتيجة تلقينه لسنوات دراسية عديدة. ومما يزيد الأمر سوءًا أن يلعب العنصر المادي بالإضافة إلى نتيجة التوجيهي في مصير الطالب وفي مصير المجتمع أيضًا وحاجاته، فمن يملك المال يحصل على القبول في الكثير من الجامعات الخاصة أو ما يسمى بالموازي، وفي أي تخصص يريد، ويبقى المعدم ليصادم الأقدار ويبدأ معاناته في أي كلية ترميه الأقدار وجيب والده الخالي إليها.

لقد حان الوقت ولم يفت بالتأكيد لمسؤولينا ووزارات التعليم في فلسطين وفي بلداننا العربية جميعًا لأخذ هذا الأمر على محمل الجد، مع ثقتنا جميعًا بامتلاكنا للعقول العلمية القادرة على البحث عن طرق

بديلة لتقييم قدرات الطالب وميوله على مدار سنين الدراسة، حتى الابتدائية منها قبل أن يدركه الوقت ويصله اليأس من نيل حقه في اختيار ميوله، فيصل إلى الكابوس الفظيع الذي يسمى "التوجيهي" وهو بعيد كل البعد عن التوجيه والإرشاد، ولنستفيد من التجارب الناجحة في الدول المتقدمة التي تكتشف المواهب والميول في سن مبكرة للطالب، فما فيه من فائدة إلا وصقلتها ودعمتها وما من شائبة إلا ونقتها وأبعدت الطالب عنها قبل فوات الأوان.

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

أنـا عـاشق

أيام سأعود.. وشوقي إليك يَسبق الحنين..

حبيبتي.. أنا عائد إليك بعد الفراق الطويل، ولربما تغيّر لون وجهي قليلاً.. شذى عطري.. موعد نومي ووقت استفاقي.. ربما شكل الليالي تغيّر.. لكن عشقي ما تغيّر.. ما تغيّر..

سأعود إليك، محملاً بشوقي الذي لا ينتهي، وبحكايات الغربة القاسية.. سأهمسها في أذنيك في لياليا القادمة، فوق سطح بيتنا القديم، مع ضوء القمر الذي ما زال يضيء ليالي السهارى.. أتذكرينها؟ أتذكرين حين كنا نتنافس والنجوم بمن يسهر أكثر.. وكيف كنا نحرس قطوف العنب الدانية فوق رؤوسنا في ليالي الصيف وحين يثقله الحرّ والأرق؟ أتذكرين يوم صارحتك وللمرة الأولى بأني عاشق، وبأني لن أنساك مهما طال الفراق، وأنك في شرايني كدمي، وفي قلبي حبيبتي، وفي عيني دمعتي، ومعك حريتي وضمان وجودي.. لا تستغربي أني ما زلت أتذكر كل هذا، فكله لم يغب عني، لا في أحلام اليقظة، ولا في أحلامي العادية.. ستقولين لي: لكنك وعدتني أن تتأقلم مع الحياة الجديدة، وأن تندمج مع المجتمع الأوروبي الذي تعيش فيه!! نعم، لقد وعدتك أكثر من مرة، أن أعتد حياة الراحة والرفاهية، لكني لم استطع. فماذا أفعل، فكلما دخلت مخبزًا أو محلاً وجدت نفسي أبحث

فيه عن الخبز العربي، ويخطر ببالي بدون قصد أيضًا عمي "أبو بسام" صاحب مخبز الطابون في بلدتنا، ورائحة خبزه التي تدعوك إلى التهامه بدون تردد! وما أجد نفسي إلا وأنا أتخيل جارتنا "أم محمود" وهي تتحدث مع جارتها "أم مهند" منذ خروجي من البيت وحتى أعود بعد عدة ساعات! فيخطر ببالي وتلقائيًا، الحياة التي يدب بين ثنايها كل الحب والتعاطف والعلاقات الاجتماعية التي تميّز حياتنا العربية والفلسطينية بشكل خاص، وأتسأل كيف تموت هذه الروح بمجرد أن تدخل المجتمع الأوروبي وتعيش فيه.. وعندما أفيق على أصوات المشترين، أتذكر أنني ابتعدت في خيالي كثيرًا لأصل إليك في ثواني قليلة، لأقف عند موقف الباصات عائدًا بعدها للبيت.. لحظتها أتذكر العم "أبو ناصر" وباصه الذي أكل عليه الدهر وشرب، والذي لم يكن يومًا يقف في موقف ثابت، فعليك أن تبحث عنه في أرجاء البلدة، وعندما تجده وتحصل على مقعد فيه - ولو أن معظم الأوقات تضطر أن تتخلى عن هذا المقعد احترامًا لسيدة أو كبير سن - وغالبًا ما يجامل عم "أبو ناصر" جاره أو قريبه، ليذهب بالباص وركابه إلى بيته ليحضره من هناك، لتصل إلى بيتك بعد أن يكون قد ضاع وقت كثير! ولمَ لا وهل عندنا شيء نملئ به وقتنا؟ فلا ثمن للوقت ولا قيمة، وليس كما هو الحال هنا في الغرب..

وحين تصل إلى بيتك، لابد أن تلتقي بابن جاركم العزيز، والذي أصبح من رواد القهوة القريبة من البيت ومنذ اليوم الذي تخرّج فيه من الجامعة، إن تسنى له أن يتخرج.. لترى في قسمات وجهه كل الإحباط

الذي وجد على الأرض.. تحاول مواساته وتفهمه أن الحال من بعضه، وأنه لابد أن يأتي يوم ويجد طريقه للعمل والإنتاج.. لكن وفي نفسك تقول إن وجد هذا الطريق للعمل، فمن يضمن له الدخل المناسب، والشقة المتواضعة، والعروس المناسبة، والتكاليف الأخرى الباهظة؟

أصل البيت وكلي نشوة بأنني مازلت بينكم، وسآكل بعد قليل من بين يدي أمي الحنونة ما أحب، أشتم نكهة "المقلوبة" بتوابلها المميزة.. ورائحة "الملوخية" الفوّاحة، لأفيق على واقع الغربة وموائده الصامتة التي لا رائحة لها ولا طعم.. حتى إن دخلت لأستحم، أتذكّرُ الحمّام عندنا، والذي كان يرتبط بـــ(بابور الكاز)، الذي كان الوسيلة الوحيدة، وخاصة في الشتاء للحصول على الدفئ والماء الساخن.. ورغم بساطته، فإن له قيمة كبيرة بيننا، خاصة حين كان يتوقف عن العمل ونبدأ بالبحث عمّن يصلحه.. لكنه مع ذلك، لا يُعَوَّض ولو بالتكنولوجيا الحديثة والجاكوزي والساونا، وغيرها مما يتوفر هنا.

ومع كل ما يتوفر هنا، فلا أراه يغني عن البقاء معكم وقريبًا منكم، وكأنّنا اعتدنا الصعاب كما هي الحياة.. وأننا نجد سعادتنا حتى ونحن نحفر في الصخر، وعِشقنا للأرض والهواء ما دام فلسطينيًا، لا يتركنا ولا نتركه حتى ولو كان الفراق طويلاً، والغربة بعيدة.. وللحديث بقية إلى أن أصل إليكِ في القريب بمشيئة الله.

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

عِنَب وعِنّاب

حالفني الحظ أن أزور فلسطين الحبيبة في عطلة هذا الصيف، وحالفني الحظ أيضًا أن أزور ولأكثر من مرة أسواق الخضار والفاكهة في الكثير من مدنها.. فكنت كلما زرت إحدى هذه المدن، أجد نفسي وقدمي تشدني باتجاه هذه الأسواق.. وما إن اقترب من محيطها، حتى تفوح روائح خضارها وفاكهتها المتنوعة.. حيث تختلط رائحة الخوخ مع البطيخ، والشمام مع البرقوق.. وما أن تتراءى لك عربات الباعة، تتخيل وكأنك تدخل جنة من جنان الأرض.. يبهرك التنوع الأخاذ لكل الأصناف والألوان والأحجام.. ولابد أن تتمنى لو باستطاعتك تذوق هذه الأصناف كلها، والمعروضة بطريقة فنية جميلة.. تجذبك الروائح التي تعبق في المكان، والتي تجعلك تتأكد من أن كل هذه الفاكهة والخضار طبيعية ومميزة، ولن تكون كالتي عادة ما تتوفر في الأسواق المشابة في أوروبا، والتي يغريك شكلها أحيانًا، لكنها في الغالب لا نكهة لها ولا طعم!! أما هنا وفي هذه الأسواق، فشكلها يبهرك، وطعمها يعجبك، وتنوعها يحيرك..

كل ذلك يجعلك تفكر مليًا بظروف المُنتِج لهذه الجنان بفاكهتها وخضارها.. هذا الفلاح الصامد على أرضه.. وكيف له أن يحمي زراعته؟ وكيف له أن يحمي ويرعى أرضه؟ وكيف يقدر أن يصنع لنا

هذه الجنان التي تزين كل أسواقنا ومحلاتنا التجارية؟ هذا المزارع الذي يكد ويتعب، ليرعى أرضه ويسقيها بما فيها من أشجار متنوعة.. وقد يقتطع من مصروف عائلته، أو يمنعه عنها، ليستطيع الاهتمام بهذه الأرض.. يجد نفسه وهو يقطف لنا هذا الكنز الغذائي الهام، عرضة للحاجة والفقر، لشح المردود ورخص سعر البيع لمحصوله.. مما يجعله يتردد في زراعة أرضه من جديد.. وهذا ما تنبهت له المؤسسات الحكومية في الدول الغربية والمتقدمة، من حماية للمزارع وحتى المستهلك.. فوضعت مستويات معينة للأسعار، بحيث لا تزيد عن المعدل المقبول ولا تقل بكثير عنه، وبذلك يبقى المزارع بعيدًا عن المقامرة بمحصوله وبقوت عياله.. ويبعده عن العوز.. وهذا ما نتمناه من مؤسساتنا الوطنية للوقوف مع هذا المزارع وتحاول حمايته، لكي لا نتركه تحت رحمة الاحتلال في تسويق هذا المحصول، وفي نفس الوقت تحمي المتسوق والمستهلك من غلاء الأسعار وتقلباتها..

يبقى المزارع الفلسطيني، وهذا الكنز الغالي في دائرة الاستهداف والخطر، لما يتعرض له مع أرضه من ضغوطات، ولمحصولة من المجازفة.. عليه أن يراعي كمية المياه التي يستخدمها لري أرضه لكي لا تزيد عن الحدود التي يفرضها الاحتلال فلا يتجاوزها، ولو كان هذا حقه في مياهها الجوفية! وهو مُعرض للتضييق في أهم عناصر نجاح موسم حصاده، بإغلاق الأسواق في وجه هذا المنتج، واقتصاره على السوق المحلية المحدودة! وأكثر من ذلك، فأرضه معرضة للمُصادرة في أي وقت لتوسيع الاستيطان وتعميق الاحتلال..

وهو أيضًا يعاني من عدم توفر الوسائل المناسبة لحفظ الفاكهة والخضار الفائضة، كمصانع تعبئة وتغليف أو مخازن للحفظ، للاستفادة منه لاحقًا أو تصديره إلى دول أخرى.. وإن وُجِدَتْ وسيلة للحفظ، فتكون بالعادة ثلاجات صغيرة لا تفي بالغرض، أو أنها لا يمكن أن تحتفظ بها لمدة طويلة.

نحن نملك كنوزًا غالية وذات قيمة، لدينا فاكهة وخضار من الجنة.. لدينا خيار وفقوس وطماطم وليمون وبرتقال.. من أجمل ما يكون.. ولدينا خوخ ورمان وصبر وتين من ألذ ما يكون.. ولدينا أيضًا عنب وعناب تغري العيون.

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

من يروي زرعنا؟

عندنا كنوز.. عندنا ورود.. عندنا طينة حمراء غنية، عندنا أطفال بعمر الورد.. أشبال الحجارة.. رأيتهم بعيني، وكما أتقنوا فنون الاشتباك والمناورة في الانتفاضتين.. رأيتهم اليوم يُتقنون كل شيء يميزهم عن أطفال العالم..

رأيت شبلاً لا يزيد عمره عن الاثني عشر ربيعًا وهو يداعب الكرة بكل خفّة وإتقان.. ينقلها على أطرافه بدقة وسرعة لا يضاهيه فيها سوى أسماء لامعة، تُقدّر أثمانها في أسواق النوادي الرياضية العريقة بملايين الدولارات.. طفل حالم، لا ينقصه سوى الاهتمام المطلوب، لتُصقل موهبته وتقوى عضلاته بالتمرين الصحيح والرعاية السليمة لعقله وبدنه، نخلق به إنسانًا مبدعًا يمثل بلده ويرفع علمها في كل المحافل الرياضية الدولية.. ولو فعلنا الشيء ذاته مع عدد من أمثاله، وهم كُثر لكانوا كنزًا ثمينًا نعتّدُ ونفخر بهم.. يحتاج هؤلاء إلى ملاعب بمقايس عالمية ومدربين محترفين يعلمونهم الألعاب على أصولها، وليس إلى مجرد أناس يراقبونهم ويكبتون انطلاقهم وحرية حركتهم..

رأيت أيضًا مواهب لا نعيرها الكثير من الاهتمام ويزخر مجتمعنا الفلسطيني بالكثير منها، وهي مواهب الرسم بأشكاله المختلفة، والتي تَحَدَثَ لي عنها الفنان التشكيلي القدير السيد حسين أبو دية، والتي

يتمتع بها عدد كبير من الموهوبين والموهوبات في هذا المجال وغيره من المجالات في فن الرسم.. وقفت عند هذه الظاهرة بتأمل كبير.. فلماذا لا نأخذ بأيدي هؤلاء الأطفال إلى طريق الاحتراف والصقل، ونساعدهم ليُعبّروا عنا وعن الأرض والإنسان برسوماتهم.. لماذا لا نُمكنهم من شق طريقهم بالدعم المعنوي والمادي ليرى العالم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأسوار القدس بريشة هؤلاء الأطفال.. فهم الأقرب إلى القلب، وأسهل للاستقطاب من الرسامين الكبار ليكونوا هم رسل فلسطين للعالم، ويحققوا ما فشل الكبار في تحقيقه.

تألقت مواهب جميلة أخرى شاهدها الكثيرون خلال الحفل الذي أقيم بهولندا للاحتفال بإعلان القدس عاصمة للثقافة العربية بمدينة روتردام، والتي قامت بإحيائه فرقة مشاعل فلسطين من مدينة نابلس ومخيم عسكر بأطفالها التي لا تتجاوز أعمارهم الرابعة عشر ربيعًا.. قدّموا فيها صور فنية رائعة من الفن الشعبي والفلكلور الفلسطيني.. عرضوا لوحات رائعة للشهيد بأيدي الاحتلال وأعداء الحرية والحياة وهو يسقط أمام حبيبته، أمه وأخته.. ورسموا للفلاح الفلسطيني أجمل صورة.. كانت رقصاتهم رغم صغر سنهم في أجمل صورها لكنها بحاجة إلى صقل يُحَولها من مجرد موهبة إلى الإتقان لتصبح فنًا راقيًا يُعَّبر عن همومنا وأحلامنا بصور فنية ولوحات متقنة.

عندنا مواهب كثيرة أخرى وفي كل المجالات العلمية والأدبية والفنية الراقية التي نستطيع لو أعرنا بعض الاهتمام بها وبأصحابها لكانوا أفضل عنوان نفخر به بين الأمم، وهم القادرون على أن يكونوا

كذلك ينقصهم فقط الاهتمام المطلوب من المؤسسات الرسمية من وزارة تربية وتعليم، ومن المؤسسات الأهلية والمدنية وغيرها ذات الاختصاص..

في فلسطين وفي أطفالها كنوز ثمينة ومواهب متعددة بحاجة إلى من يرعاها ويأخذ بيدها لتعلو وتحلق عاليًا مع اسم فلسطين العالي..

في فلسطين زرع ينبت في طينة غنية، لكنه يحتاج إلى من يرويه..

فهل هناك من يروي زرعنا؟

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

مَن يَطرق البابْ؟

انظروا معي هذا المشهد:

حقيبة سفرٍ ملقاة على طرف الرصيف.. لونها تغيّر من كثرة تعرضها لأشعةِ الشمس الحارقة.. وعليها بقع زيت لا يُعرف مصدرها! وعجوز كبير أثقله العمر وقسوة الأيام.. يستظل ببقايا شجرة بقيت مع كل تحديات الزمن والعدوان المتكرر.. وطفل صغير يمسك بأطراف عباءة أمه.. يبكي ويضحك ويلعب في آن واحد!! لا تعرف ما الذي يبكيه وما الذي يضحكه ولو تعددت الأسباب.. الجوع والعطش وطول انتظار لا يعرف لماذا يعاقب بها! قد تكون أسباب هو يفهمها ونحن الكبار لا نفهمها!! ويضحك أيضًا بدون سبب، غير براءته التي لم يعرف يومًا طريقًا إليها.. ويلعب بلا شئ وكأنه تأقلم على خداع نفسه بإنه طفل كباقي أطفال العالم!! وهناك جريح يُلفُ بملاءةٍ بيضاء أو كانت على ما يبدو بيضاء، وغيّر لونها الغبار وأشعة الشمس.. يُقلبه والده يمنة ويسرة، ليحاول إبعاده عن خيوط الشمس التي تزيد جرحه التهابًا.. كم مضى من الوقت على هذا الحال وهذا الانتظار وعلى هذا المشهد: يومان، ثلاثة، أربعة، لم يعد يعرف أسماء الأيام ولا تسلسلها!! ولم يعد يعرف سوى أنه موجوع بلا حد، وجرحه عميق باتساع العالم.. ولو كان الجرح يُختَصر بألمه

لكان الجرح يُحتمل.. لكن جُرحهَ يصل إلى أبعد، أبعد من جسده.. إنه يصل إلى العمق، ليصل إلى خارج حدود وطنه.. جرح يفصل الإخوة بين طرفي الحدود والأوطان..

وفي الركن البعيد، مريضُ في منتصف العمر.. يئنُ بحرقة من ألم مرضه الخطير.. وعيونه تتحرك في كل اتجاه، وسَمعه متنّبه لأي همس.. لعل نداءً لإسمه يأتيه في أي لحظة.. ليصل إلى من يخفف ألمه أو يسكّنه على الأقل.. لكن هذا الألم وهذا الانتظار طال كثيرًا برغم الوعود أن يكون اسمه أو رقمه في قمة القائمة المسموح لها بالانتقال إلى الطرف الآخر.. هذا الوعد الذي أكدوه له منذ عدة أسابيع.. تحرك بتثاقل إلى شباك الموظف المسؤول، ودون أن ينبس بحرف، أجابه من خلف الزجاج: إرتاح يا حاج، لم تأت الأوامر بفتح المعبر بعد.. الله المستعان.. يرجع إلى ركنه وهو يتمتم:

أين أعلى السلطات التي ستخفف عنا هذا الحصار؟

أين القلوب الرحيمة التي تحس بألامنا؟

أين الإخوة الذين يناصرون المظلوم؟

من يطرق علينا الباب؟

جاءه الخبر: فقد وصل الحال إلى صاحب الأمر.. وقرر أن يعقد مؤتمرًا واسعًا يوضّح به الأمر.. تجمّع المصورون والصحفيون ومدراء وكالات الأنباء والإذاعات والقنوات الفضائية ومنظمات حقوق الإنسان من كل الأنحاء، وظهر المسؤول الكبير والحاشية والمستشارون والمسؤولون من حوله، ظهر في المكان ووجهه عابس، قاطب

الحاجبين، وقبل أن ينطق بكلمة.. اسوَدَّ وجهه، وفرطت دموعه الغزيرة! صاح هائجًا: لا للحصار، لا للموت البطيء.. لا لإغلاق المعبر.. كلنا أهل غزة، وأطفال غزة.. كلنا فداكِ يا بطلة.... يا صامدة.. لا للجوع.. لا للعَوز.. نحن أنتم وأنتم نحن..

بكى الحاضرون جميعًا.. غسل وجوههم الدمع.. وطبطب كل واحد على كتف جاره من الحضور.. وأخذت صور كثيرة من كل الاتجاهات للمسؤول، وحتى لدموع الحاضرين! حتى المريض المنتظر على المعبر، والذي راقب الحدث والمؤتمر من خلال الشاشة في المعبر دمعت عيناه.. واستبشر بالخير وبفتح المعبر بعد هذا المؤتمر الهام.. صفق الجمهور بشدة، ووقفوا احترامًا للمسؤول وهو يغادر قاعة المؤتمر، وحتى بعد مغادرته لها.. فرحوا للكلمات الحازمة والوعود القاطعة له.. وظل الجميع يُصفق ويبكي من تأثير هذا الكلام.. غادروا المكان إلى بيوتهم أو إلى أماكن أعمالهم.. لكن الحاج محمود بقي في ركنه في إحدى زوايا المعبر يتأمل في الوجوه.. يسترق السمع وبعد ذاك المؤتمر بعدة أشهر؛ لعل وعسى يصرخ أحدهم على اسمه لينتقل ويصل إلى مبتغاه! وبقي معبر رفح على حاله ينتظر من يطرق الباب ليفتحه!! وبقيت الجرائد والمجلات وفي الصفحات الأولى وكل وسائل الإعلام تمجد بحكمة المسؤول سالف الذكر وكلماته الحازمة، وتعاطفه المؤثر ووعوده القاطعة!! وفي الصفحة الأخيرة من إحدى هذه الجرائد، وأيضًا في ركن صغير لا يتعدي السنتيمترات،

كان هناك نعي للحاج محمود قضاها في طاعة الله وفي انتظار الفرج...

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

حبيبتي.. أنا ما زلت على الوعد

ها أنا وكما وعدتك في رسالتي السابقة، ألملم حقائبي وأستعد للسفر إليك.. بودي أن أغمض عينيّ وأفتحهما، فأجد نفسي أكحل عينّي بوجهك الجميل.. وجهك الذي يشبه ربيع بلادي، وزهر النرجس البري في جبالنا الخضراء.. لا أستطيع الصبر لموعد رحلة الطائرة، ولا لانتظر الساعات الطوال كي أصل إلى الحدود التي تفصل الأردّن عن فلسطين.. لن أستطيع صبرًا وأنا أقطع بضع كيلومترات في تلك الحدود، ولا أن أزاحم العائدين على الجسر، وأملئ عشرات الاستمارات، أو أن أتّبعَ إجراءات الوقوف في الصفوف الطويلة، والصعود والنزول المتكرر للحافلات التي تنقلنا لمسافة قصيرة جدًا، لكن بوقت ثقيل وطويل.. لن أستطيع محاباة جنود الاحتلال ومحاولة "الرطن" معهم بالعبرية كما يفعل البعض..

أتمنى لو أستطيع الطيران وأختصر كل التعقيدات والمسافات، أو أنهي كل إجراءات الإذلال المنظم التي يواجهها كل فلسطيني، وهو يدخل أو يخرج من وطنه مع كل معاناة الانتظار والتدقيق المتكرر والبحث عن أمتعته على الأرصفه.. وكأنه صندوق أسود يحتاج لمن يفتحه ويعرف أسراره، وليس إنسانًا له الحق في السفر والتنقل بحرية في أرجاء وطنه وخارجه..

أريد أن أعود إليك بلمح البصر، لأعيش معك وبك طوال العمر.. وسأعيش معك أينما كنتِ، فلم يعد يهمني أن ابني عشنا الصغير في بلدتنا، كما كنت أصرّ في الماضي.. المهم أن يكون على قمة الجبل، كما كنت دائمًا تحلمين.. في طولكرم أو الناصره.. على جبل عيبال أو على قمة الجرمق أو على سفح جبال صفد، لو أحببتِ.. فكلها أرضنا ويمكنك الاختيار!

أتذكرين حين كنا طفلين، كيف كنا نتسابق مَنْ منا يقطف الأزهار البرية الأجمل؟ وكيف كنت تفرحين حين تجدي الزعتر البري بين الصخور؟ أو زهرة الأقحوان؟ كم كان يعجبك تسلق الجبال العالية، خاصة حين كانت تطل على منظر جميل.. وكنت أسمعك دائمًا عندها تقولين: ما أجملكَ من بلد، وما أنعَشكَ من هواء، وما أغلاكِ من أرض.. وها أنا بعدما زرت معظم بلدان العالم، أيقنت أنه فعلاً ما أجملكَ من وطن وما أغلاكِ من أرض..

أتعرفين؟ ما زلت أتذكر أن الهدوء يستهويك، فأنت لا تحبين الضجيج وزحمة الأسواق. فلا بأس، سأسرق بعض الوقت لاستمتع أنا كما كنت بأصوات البائعين، وهم يصرخون لبيع بضاعتهم.. وسأستمتع برائحة البرتقال والخوخ والشمام الفلسطيني.. فما زلت أعشقها كما أعشق الحديث إليك.. وكما أعشق الأرض التي تمشين عليها..

لا تستغربي عزيزتي إن عرفتِ أنني من أجلك أقلعت عن التدخين! وأني صرت أحب زهرة الياسمين مثلك وأكثر من حبي لزهرة الجوري! وأتخيل أني سأجد اللذة في طعم "الحصرم" و"الجرانك"

الأخضر، ما دمت أنتِ من سيقطفه لي.. وأني بدأت أفكر بأن يكون لنا أولاد كثر، وليس كما كنت دائمًا أصرّ بأن يكونوا أربعة فقط! ولا يهمني إن كانوا ذكورًا أو إناثًا.. لكن حبيبتي اتركي لي اختيار أسمائهم مهما كان عددهم.. فأسمّي الأول "فلسطين" والثاني "فلسطين" والثالث "فلسطين" و.. "فلسطين"..

وأرجوك إن وصلتْ رسالتي هذه قبل أن أصل، أن تدعو لي الله أن يبعد عني الشر والأشرار ومشاق الوصول إليك.. وتمنّي لي السلامة وطيب الإقامة في ربوعك يا أحلى وطن ويا أجمل معشوقة..

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

يُحكى أنَّ... من واقع الحال

يحكى أن جارين في بلدة صغيرة، توطدت بينهما علاقة صداقة متينة حتى أصبحا لا يفترقان أبدًا في أي مجلس.. وبسبب هذه الصداقة القديمة التي جمعتهما من أيام الطفولة، اتفقا على أن يتقاسما دكانًا فتحاه في وسط البلدة.. وعند نهاية كل شهر، كانا يتقاسمان غلة هذا الدكان ويحمدان الله ويشكرانه على نعيمه ورزقه. فقد كان الدكان موفقًا ويُدر عليهما ربحًا وفيرًا.. ولمتانة صداقتهما أصبحا يتعاملان مع عائلتيهما وكأنهما واحدة، فإن أحضرا خبزًا كان نصفه لهذه العائلة ونصفه الآخر للعائلة الأخرى، وإن أحضرا فاكهة كان لكل منهما النصف. ومع مرور الزمن، كان أحد الشريكين وهو يجلس في دكانه يلاحظ بيتا من النمل تحت عتبة دكانه، وكان يلاحظ نشاط هذا النمل المستمر في نقل حبوب القمح والشعير من الخارج إلى البيت وقد مضى على هذا العمل الدؤوب سنوات عديدة.. وفجأة وفي صباح يوم من الأيام لاحظ حدثًا غريبًا لم يعتد عليه.. فقد لاحظ النمل الذي اعتاد حمل القمح والحبوب من الخارج إلى الداخل وإذا به يعكس الأمر، ويبدأ بنقل الحبوب من الداخل إلى الخارج، فاستعجب الأمر، وذهب إلى حكيم ليسأله سر هذا التغير المفاجئ في تصرف النمل.. لعله يجد تفسيرًا منطقيًا له. وعندما قص الأمر على الحكيم نصحه

بأن ينظر في الأمر بينه وبين شريكه.. لربما تغيرت نية أحدهما؟!
فعاد إلى بيته منزعجًا متسائلاً واستفسرمن زوجته عن الأمر.. ومع إصراره عليها، صدقته القول وقالت: في المدة الأخيرة، لعب الشيطان برأسي فكنت حين ترسل لنا الخبز، اختار الكبيرة لنا والصغيرة لشريكك، وحين ترسل لنا الفاكهة والخضار اختار أحسنه لنا والباقي لشريكك، وهكذا في كل ما كنت تحضره..
غادر الرجل مهمومًا، وتوجه إلى صديقه وأبلغه وبدون تردد آسفًا، بأنه لم تعد الشراكة قائمة بينهما بعدما تغيرت النوايا ودخل الشيطان بينهما!!

• • •

ويحكى أيضًا بأن جحرًا للفئران في منطقة ريفية، كانت الفئران تسرح وتمرح في حاراتها والحارات المجاورة، بدون إحساس بالخطر ولا توخّي للحذر.. وفجأة ظهر لهذه الفئران قط عرف مكانها وموقع جحرها، فترصد لها، فما أن يخرج أحد الفئران حتى يهاجمه ليكون وليمة له في ذلك اليوم.. ومع زيادة خطر هذا القط وتضيقه عليها، اجتمعت الفئران داخل جحرها تتدارس حلاً لهذا الخطر الداهم، وهذا القط الذي نغّص عليها حياتها وجعلها حبيسة جحرها.. فكان هناك رأي سديد، بأن يقوم أحد الفئران بتعليق جرس في رقبة هذا القط، فإذا سمع الفئران الجرس، يعني أن القطَّ متربصٌ بالخارج، فيأخذوا حذرهم وإن لم يُسمع تأخذ الفئران حريّتها بالخروج.

راق الرأي للجميع بدون استثناء واثنى على ذلك أحد الفئران قائلاً: يا له من رأي حكيم، ولكن ياهل ترى من هو هذا الجريء فينا الذي يعلق هذا الجرس؟!!

• • •

يحكى أيضًا أن أخوين ورثا قطعة أرض كبيرة عن جدهما، وكانت الأرض مزروعة بالأشجار المثمرة من كل الأنواع وأحلاها.. كان اهتمام الأخوين بالأرض كبيرًا، وكانا يبذلان كل جهد ممكن لريها وحرثها ولكل ما تحتاجه.. وفي أحد الأيام وهما يهمان بدخول أرضهما، إذا بأناس غرباء قد استولوا على كل الأرض، ومنعاهما من دخولها بالقوة!! اعترض الأخوان على ذلك، لكن الغرباء صدوهما عنها، معللين ذلك بأن هذه الأرض هي بالأصل لجدهما، لكن جد الأخوين سيطر عليها وحرمهم منها.. وهاهم يستعيدونها..

انكفأ الأخوين هائمين يبحثان عن حل للمصيبة التي حلت بهما، ويطلبان تدّخل كل من يستطيع التدخل لعل وعسى أن يستطيع مساعدتهما في استعادة أرضهما التي سُلبت بين ليلة وضحاها..

وأخيرًا وبعد عناء ومحاولات وتدخل من الوسطاء، أعاد الغرباء لهما جزءًا صغيرًا من الأرض.. وهذا الجزء الصغير امتد من بداية الطريق العام إلى مسافة غير بعيدة داخل الأرض الكبيرة.. اتفق الأخوان على تقاسمها، ليهتم كل واحد منهما بنصيبه.. لكن خلافًا بدأ بين الأخوين على من الذي سيحصل على القطعة التي تقع على

الطريق العام، ومن الذي سيحصل على القطعة الأخرى|| وكل منهما يبرر أحقيته في الحصول على القطعة الأفضل وببناء غرفة صغيرة على الطريق العام.. وهكذا إلى أن ازدادت المشكلة تعقيدًا، خاصة بعدما بدأ التدخل من الجيران وغيرهم لحل النزاع، ولم تعد البلدة تسمع إلا عن صراع الأخوين على القسمة..

أما بقية الأرض فراح الغرباء يحيطونها بسياج من جميع الجوانب، ونسي الأخوان كل شيء عن أمرها، ماعدا صراعهما الذي لم يتوقف||

نشرت في دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م